(٤)
تنازل الحسن عن الخلافة وتتابع الأحداث

obeikandl.com

عندما وسد الإمام علىّ التراب بايع أهل الكوفة الإمام الحسن للخلافة.. وكان الحسن فى السابعة والثلاثين من عمره.. شابًا فيه سمات الصالحين، كما أن فيه مهابة لشبهه بالرسول عليه الصلاة والسلام.. والناس يعرفون أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال عنه:

«اللهم إنى أحبه فأحبه».

والرواة يتحدثون عن حب جده عليه الصلاة والسلام له حتى أن النبى كان يحمله على رقبته.. وقد شهده أحدهم فقال:

ـ نعم الركب ركبت يا غلام.

فرد الرسول عليه الصلاة والسلام.

ـ ونعم الراكب هو.

وقد التف الناس حوله لحب الرسول له، ولما كان هو نفسه يمتاز به من مناقب متمثلاً فى جوده وتسامحه وتواضعه وتقواه.

كما أن الناس فى الكوفة شعروا بأنهم خذلوا والده وأن الإمام الشهيد طالما عانى من تخاذلهم عن نصرته، مما مهد الأمر لمعاوية..

لقد وجدوا فى الحسن خير خلف لوالده.. فلا أحد ينكر صلته بالرسول الكريم.. ولا أحد ينكر تقواه حتى قيل أنه حج خمسًا وعشرين مرة.. وكان عف اللسان.

ولكن معاوية وقد عرف بمقتل الإمام، أراد أن ينتهز هذه الفرصة ويواصل زحفه نحو العراق، ويحتله عنوة.. وعلم الناس بالكوفة بتحرك جيش معاوية، فاحتشدوا لمواجهة الجيش القادم من الشام.

وفكر الحسن فى الأمر.. وقرر أن يضع نهاية لهذه الحرب الأهلية، وأن يضع حدًا لإراقة الدماء.. وقرر أن يتنازل لمعاوية عن الخلافة، على أن يؤول إليه الأمر من بعده.. وألا يطالب معاوية أحدًا من أعوان أبيه سواء كانوا فى المدينة أو الحجاز أو العراق بشئ مما كان أيام أبيه، ويقضى ديونه.

ووافق معاوية على هذه الشروط.

فما كان لرجل فى دهاء معاوية أن يضيع هذه الفرصة وأن تتوحد البلاد الإسلامية تحت رايته، وأن يتفرغ من هم الحرب الأهلية ليتفرغ لتثبيت ملكه، وليعاود الفتوحات والانتصارات فى شمال فارس، وفى الشمال الأفريقى.

وتنازل الحسن عن الخلافة فى سنة إحدى وأربعين وآل الحكم نهائيًا للأمويين.. وتحقق بذلك ما قاله الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام فى الإمام الحسن:

«يصلح الله به فئتين من المسلمين».

وعاد الحسن والحسين وآل البيت إلى المدينة.. وعاش الحسن ثمانى سنوات فى المدينة..

ويقول الرواة أن يزيد كان يخشى من الحسن أن يئول إليه الأمر بعد معاوية، فاتفق مع زوجة الحسن (جعده بنت الأشعث) أن تسمه وأن يتزوجها فغدرت بالحسن. وبات مسمومًا.

وقيل أنها عندما طالبت يزيد أن يفى بوعده بالزواج منها رفض قائلاً:

ـ إنا لم نرضك للحسن أفنرضاك لأنفسنا!!

وهكذا أصبح معاوية بعد وفاة الإمام الحسن يعد العدة، لتتحول الخلافة إلى ملك عضوض، بأن يرثه فى الخلافة ابنه يزيد.. غير أن أهل الحجاز الذين يعرفون تاريخ معاوية ووالده أبى سفيان بن حرب الذى طالما كان يكيد للإسلام والمسلمين، وأمه هند التى لاكت كبد الحمزة عم النبى عليه الصلاة والسلام.. لم يكن ليرضوا أن تتحول الخلافة إلى ملك..

فسفيان بن حرب والد معاوية لم يسلم إلا بعد أن فتح النبى عليه الصلاة والسلام مكة.. ولكى يرضى غرور أبى سفيان قال:

ـ من يدخل بيت الله الحرام فهو آمن، ومن يدخل بيتى فهو آمن، ومن يدخل بيت أبى سفيان فهو آمن.

والدليل على رفض أهل المدينة والحجاز لمعاوية، وأنهم قبلوا خلافته على مضض.. أن معاوية ذهب إلى المدينة فقابله أهلها بجفاء شديد.. فما كان منه بما عرف عنه من دهاء شديد أن قال لبعض الأنصار.

- تلقانى الناس كلهم غيركم يا معشر الأنصار.

قال له أحدهم:

- لم يكن لنا دواب!

- فقال معاوية:

- وأين النواضج (الإبل).

رد الرجل بغلظة وخشونة:

- عقرناها فى طلبك وطلب أبيك يوم بدر!

لم يصمت الرجل عند هذا الحد بل قال لمعاوية الذى يزرهم لأول مرة منذ توليه الخلافة.

- إن النبى ﷺ قال لنا:

- إنكم سترون بعدى أثره (يعنى مصيبة).

قال معاوية بهدوئه الشديد:

- فما أمركم؟

- أمرنا أن نصبر.

obeikandl.com

وعاد معاوية إلى دمشق ليحكم قبضته على كل أرجاء ملكه.. وكان قد عين عمرو بن العاص أميرًا على مصر، والمغيرة ابن شعبة أحد الدهاة الغلاظ القلب أميرًا للبصرة، وعلى الكوفة ابن زياد.. الذى كان موالِيًا للإمام على رضى الله عنه، ثم انحاز لمعاوية، والذى اعترف بأخوته له، وبذلك سمى زياد ابن أبى سفيان، بعد أن كان يعرف بزياد ابن أبيه!

ومن هنا ضمن معاوية ولاء زياد، وزياد هو الذى أنجبه أبو سفيان فى علاقة غير شرعية قبل أن يدخل الإسلام بجارية اسمها «سمية».

وقد ضاق بعض الأمويين ذرعًا بهذا الاعتراف، وقد امتد سطانه إلى الكوفة أيضًا بعد وفاة المغيرة.

وكان زياد هذا متغطرسًا.. يسير كأنه ملك.. يسير حوله الجنود.!

وعلى المدينة تولى الإمارة مروان بن الحكم الفظ الغليظ القلب، الذى كان كثيراً ما يسىء لأبناء الصحابة.. بل بلغ من وقاحته أنه كان يسب الإمام علىّ على المنبر دون أن يراعى مشاعر آل البيت.!

ومما يحسب لمعاوية فى هذه الفترة من عمره التى امتدت عشرين عامًا معاودة الفتوحات الإسلامية فى الشمال الأفريقى،

مجابهة الروم فى كل الجبهات، ومواصلة الزحف فى شمال فارس، ومهاجمة القسطنطينية عاصمة الامبراطورية الرومانية.

وحقق كثير من الفتوحات التى وطدت دعائم الإسلام فى هذه البلاد، وبات الطريق سهلاً للوصول بالفتوحات الإسلامية حتى شواطئ الأطلنطى.

فقد وصل عقبة بن نافع بجيوشه حتى تونس، وبنى مدينة القيروان.!

ولم يكن هم معاوية الشمال الأفريقى فقط، بل كان همه أن تصل الجيوش الإسلامية وينتشر الإسلام فى تركستان وأزيكستان الحالية، والتوغل فى الهند.. وينجح معاوية فى ذلك ومن بعده خلفاؤه نجاحًا كبيرًا فى ضم مساحات شاسعة من آسيا وأفريقيا إلى امبراطوريته.

* * *

على أن من أهم الأحداث التى أحدثها معاوية أثناء حكمه هو أخذه البيعة لابنه يزيد، وتحويله الخلافة إلى مُلْك.

وقد نبعت هذه الفكرة فى ذهنه، عندما أخبر المغيرة بن شعبة يزيد بذلك وراقت الفكرة له، فأخبر والده الذى رحب بذلك بحجة أن تعيين يزيد خلفًا له سيجنب البلاد سفك الدماء التى حدثت بعد خلافة عثمان بن عفان.

وعندما سأله معاوية:

- ومن لى بذلك؟

قال المغيرة:

- أنا أكفيك الكوفة، ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك.

وراقت الفكرة لمعاوية تمامًا.. وأعمل عقله وفكره ودهاؤه لهذا الأمر.. وطاوعه ولاته زلفى وتملقًا.. وبايعه أهل الشام والعراق.. ولم يبق إلا الحجاز، وقرر معاوية الذهاب بنفسه لأخذ البيعة لابنه بصحبة ألف فارس.

وكان قد سبق لمعاوية أن أرسل لواليه فى المدينة مروان بن الحكم قائلاً له:

« إنى كبرت سنى، ودق عظمى وخشيت الاختلاف على الأمة من بعدى، وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بعدى، وكرهت أن أقطع أمرًا دون مشورة من عندك، فاعرض ذلك عليهم، واعلمنى بالذى يردون عليك».

وأخبر مروان الناس بما كتبه إليه معاوية.. فوافقوا أن يختار لهم.

وأرسل له الخليفة مرة ثانية بأنه اختار ابنه يزيد ليخلفه.

وأثار هذا الاختيار الناس حتى أن عبد الرحمن بن أبى بكر قال لمروان بن الحكم:

« ما الخيار أردتم لأنه محمد ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية، كلما مات هرقل، قام هرقل».

ووقف الحسين بن على فاعترض على هذا الاختيار كما اعترض أيضًا عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر واتضح لمعاوية عندما عرف ما حدث من عامله مروان بن الحكم أن هناك معارضة قوية من أولاد الصحابة أن يتولى أمرهم من بعد معاوية ابنه يزيد، ويزيد هذا لم يكن فوق مستوى الشبهات.. فقد عرف الناس عنه أن شديد الولع بالقمار وشرب الخمر.!

وأثر معاوية أن يذهب بنفسه إلى المدينة.. وأن يحسم الأمر بنفسه.. صاحبًا معه ألف من حرس الشام، وعندما علم المعارضون بهذا الأمر، انطلقوا إلى مكة.

وذهب معاوية معتمرًا، وجمع الناس ليحدثهم فى أمر يزيد.

قال لهم معاوية:

قد علمتم سيرتى فيكم، وصلتى لأرحامكم، وحملى ما كان منكم.. ويزيد أخوكم وابن عمكم.. وأردت أن تقدموه

باسم الخلافة، وتكونوا أنتم تعزلون وتأمرون.. وتجبون المال وتقسمونه لا يعارضكم فى شىء من ذلك.

وهنا وقف عبد الله بن الزبير واقترح أن يكون الأمر على ما كان بعد رسول الله، فلم يعين الرسول أحدًا من بعده وترك الأمر شورى بين المسلمين، فاختار الناس أبا بكر.

وقال معاوية:

ـ ليس فيكم أحد كأبى بكر.

فاقترح عليه ابن الزبير أن يكون الأمر كما فعل الفاروق عمر.. فقد رشح ستة ليختار المسلمون منهم واحدًا.. ولم يكن من هؤلاء المرشحين أحد من ذوى قرباه.

ورفض معاوية ذلك وقال لهم:

فإنى أحببت أن أتقدم إليكم إنه قد أعذر من أنذر، إنى كنت أخطب فيكم فيقوم إلى القائم منكم فيكذبنى على رءوس الناس فأحمل ذلك فأصفح، فإنى قائم بمقالة: فأقسم بالله لئن رد علىّ أحد منكم كلمة فى مقامى هذا لا ترجع إليه كلمة حتى يسبقها السيف إلى رأسه فلا يبقين رجل إلا على نفسه.

وأمر معاوية حراسه أن يقفوا على رءوس الناس، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال:

«إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبت بأمر دونهم، ولا يقضى إلا عن مشورتهم، وأنهم قد رضوا وبايعوا يزيد.. فبايعوا على اسم الله.

وتحت هذا الضغط وهذا التهديد.. بايع الناس يزيد.

وعاد معاوية إلى الشام مع جنده بعد أن أخذ هذه البيعة تحت تهديد السلاح.

ومرت الأيام..

وقضى معاوية فى الخلافة قرابة عشرين عامًا.. وحين حضرته الوفاة عام ٦٨٠م.

طلب إحضار شعيرات من شعر الرسول عليه الصلاة والسلام كان محتفظًا بها تبركا، وبعض من قلامة أظافره، وأوصى بأن يدفن ومعه هذه الأشياء من زكريات الرسول الكريم.. بأن يضعوها فى عينيه وفمه، وأن يكفن بعباءة كان قد أهداها له الرسول عليه الصلاة والسلام وقال لمن حوله:

- افعلوا ذلك وخلوا بينى وبين أرحم الراحمين.

توفى معاوية فى شهر رجب سنة ٦٠هـ.. وآل الحكم إلى يزيد.. الذى ولد فى دمشق سنة ٢٦هـ.. وكان يزيد مع لهوه أديباً وشاعرًا، وورث عن والده الذكاء والدهاء وسعة الحيلة.

وفى عهده واصلت الجيوش الإسلامية زحفها حتى وصلت إلى شواطئ الأطلنطى بقيادة عقبة بن نافع.. كما بدأت جيوش الإسلام تنطلق فى آسيا الوسطى حتى وصلوا إلى نهر جيخون. ولكن فترة حكمه القصيرة (٦٠ ـ ٦٤هـ) شابها فترات كانت من أسود فترات التاريخ الإسلامى مما سبب أن يوصم عهده بالظلام والإظلام والبطش والطغيان.. وكان على رأس هذه الأزمات التى تعرض له حكمه.

ـ مأساة كربلاء.. التى راح ضحيتها الإمام الحسين وعدد كبير من آل البيت سنة (٦١هـ).

ـ ثم الحملة التى أرسلها على المدينة المنورة لمنع الثورة بها.. بلا رحمة ولا شفقة ولا تقدير لمكانة أهل المدينة من رسول الله وهم أبناء أجلاء الصحابة (٦٣هـ).

ـ كما كان إرسال حملة لمكة المكرمة (٦٣هـ) لمجابهة عبد الله بن الزبير (٦٤هـ).. وانتهاك حرمة البلد الحرام.. كل ذلك كان صفحات سوداء فى تاريخ يزيد.

* * *